الفصل الرابع

محمد أحمد نعمان
(النعمان الابن)
وتجديد اللغة السياسية

يعد مُحَمَّد أحمد نعمان سياسيا يمنيا مميزا قام بدور مهم في التغيير السياسي والدعوة إلى تجديد الفكر السياسي في اليمن الحديث. فقد جمع بين السياسي المحنَّك المحاور اللبق المناوِر من جهة، والمفكِّر السياسي المبتكِر للمفاهيم السياسية الجديدة، المبادِر الصريح من جهة أخرى، وهما صفتان إذا اجتمعتا كانتا مصدر تنازع وعدم رضى أو سوء فهم من قبل الآخرين أحيانا. اقتحمت السياسة حياته منذ الطفولة ولم تترك له أية فرصة لينعم بطفولة وادِعة. فقد التهمت طفولته ومراهقته واستغرقت كل حياته. ومع أنه تفتح على السياسة خلال مرافقته لوالده منذ الطفولة، كان من الذكاء بحيث صنع من تجربته المبكرة شخصيته الخاصة. فلم يكن مجرد ظل لوالده، بل كان منذ البداية ينظر إلى الأمور من زاويته الخاصة، ويجرِّب ويحاول ويجتهد كي يضيف شيئًا جديدًا إلى ما يعايش في حركة الأحرار منذ بدايتها.

ولم يكن من السهل الإضافة إلى الفكر السياسي اليمني في وجود عملاقين سياسيين هما أحمد مُحَمَّد نعمان ومُحَمَّد محمود الزبيري، ظلا خلال عقود من الزمن عنوانا لحركة الأحرار المعارِضة، ورمزا لكفاح اليمن من أجل التغيير، ومصدرا للانبعاث في كل مرة تصاب هذه الحركة بنكسة، وبذلك لم يكن بالإمكان تجاوزهما أو القفز فوق تجربتهما، وحتى الإضافة إلى ما يقدمان من مفاهيم وأفكار. وظلت كل إضافة إما تنسب إلى ما يقدمان أو تحاول أن تنال من مكانتهما. وهكذا فإن تميُّز مُحَمَّد نعمان يقاس بالخطوات الصغيرة التي أضافها إلى مسيرة حركة الأحرار وبتوضيح بعض المفاهيم بأسلوبه الصريح المرتكز إلى خلفية ثقافية واسعة، ومرجعية فكرية ليبرالية محددة وصريحة.

ولد مُحَمَّد نعمان سنة 1933، حين كان والده منهمكا بإيجاد تجربة تعليمية جديدة في المدرسة التي أنشأها وأدارها في منطقته، بل كانت هذه التجربة التعليمية جديدة في اليمن كلها، بعد عودته من الدراسة في زبيد. وقد عمل بالتدريج لتطوير أساليبها التعليمية وجلب لها المدرس المجدد والكتب والمفاهيم التربوية من مستعمرة عدن. لم يكن الطفل مُحَمَّد نعمان بعد قد بدأ الدراسة على والده حين غادر أبوه اليمن ليخوض في معمعة طويلة من البحث عن طريقة للتجديد والتغيير، باحثا عن المعرفة وساعيا لإصلاح أحوال البلاد والتعريف ببلد مغلق معزول يعاني من الظلم والاستبداد. وقد ترك الأب فراغا كبيرا في حياة الطفل الذي ظل يشتاق إليه وينتظر عودته ليوفر له الحنان الأبوي ويساعده في الحصول على المعارف التي يمكن أن يحصل عليها.

وبعد تجربة قصيرة نسبيا من 1939 إلى 1940 قضاها نعمان الأب في مصر، في محاولة للدراسة والكتابة عن اليمن والمطالبة بالتغيير والإصلاح، عاد لينهمك في مغامرة أصعب تمثلت بالاقتراب من الأمير العنيف حاد الطباع وغريب الأطوار ولي العهد أحمد حميدالدين في تعز، الذي تجمَّع من حوله عدد من المستنيرين، منهم نعمان والزبيري، علهم يقنعونه بالقيام ببعض الإصلاحات التي تُخرِج البلاد من عزلتها وانغلاقها وتخلفها، بعد أن يئسوا من والده الإمام العجوز الغارق في الجمود والشك في كل من يطالب بتحسين الأمور في مملكة الظلام.

وقد كان لهذه التجربة القاسية في تعز أثرها على الفتى الذكي مُحَمَّد نعمان المتفاعل مع الظروف من حوله ومع تجربة والده، مع أنه كان ما يزال طفلا. وحين هرب والده ومعه الزبيري في سنة 1944 إلى عدن ليؤسسا حركة المعارضة المنظمة في حزب الأحرار، أسرع مُحَمَّد نعمان للالتحاق بوالده إلى عدن، وهو ما أتاح له الحصول على قدر من التعليم الحديث والبدء بدراسة اللغة الإنجليزية التي ستساعده في التعرف على مؤثرات ثقافية أخرى، إلى جانب معايشة تجربة والده ورفيق دربه الزبيري في حركة الأحرار، والاحتكاك بما تنشر صحيفة المعارضة "صوت اليمن"، بذهنه الصغير المتوقد بالذكاء والاستعداد للاستيعاب.

لكن هذه التجربة تنتهي بكارثة سقوط الحركة الدستورية في صنعاء واعتقال والده وهو في الطريق إلى العاصمة وسجنه في حجة. وعلى الرغم من الصدمة الكبيرة الذي مثله اعتقال والده وغيابه الطويل، كان مُحَمَّد نعمان من الشجاعة بحيث قَدِم إلى صنعاء للالتحاق

بوالده في حجة، فتعرض للاعتقال في سجن الرادِع مع أن سنه لم يتجاوز خمسة عشر سنة. وحين أُفرِج عنه نظرا لصغر سنه التحق بوالده إلى حجة وأصبح هو نفسه أشبه بسجين أو بمن حددت إقامته في مدينة حجة التي كانت في تلك الأيام معزولة داخل العزلة المفروضة على مملكة الظلام، ومنفى حقيقيا بالقياس إلى مستعمرة عدن التي جاء منها أو حتى من تعز القريبة من عدن. وقد استفاد من هذه التجربة الصعبة من خلال الاحتكاك بعدد كبير من الأحرار المثقفين المستنيرين المسجونين في حجة والتفاعل معهم والتعلُّم منهم ومحاورتهم ومحاولة دفعهم للتفكير بمستقبل بلادهم وبما يقترحون من حلول ومن تصوُّرات للخروج من الكارثة التي حلت بالمعارضة المستنيرة وبالبلاد ككل.

ومما يستحق الملاحظة أن الآخرين كانوا ينظرون إلى مُحَمَّد نعمان (الذي كان ما يزال في تلك الفترة مراهقا) باعتباره قادرا على أن يقوم بدور ما في الاتصال بوالده في السجن ونقل رسائل سياسية. فهذا الأمير عبدالله بن يحيى حميدالدين، الذي كان في تنافس مع أخيه الطاغية الإمام أحمد، يطلب منه زيارته حين كان في صنعاء سنة **1952**، وحين زاره طلب منه نقل رسالة سياسية إلى والده توحي بالاستعداد للتعاون مع الأحرار في المستقبل. يقول عن هذه الحادثة "اتصل بي سيف الإسلام عبدالله بواسطة أحد أعوانه الذي أبلغني سخط الأمير على الأوضاع ويرغب في مقابلتي والتفاهم معي نيابة عن والدي الذي كان منفيا في حجة... وذهبت لزيارة السيف عبدالله في منزله منفردا... أحسست أنه لا بد من صدام على نحو ما في يوم من الأيام"[113] بين الإمام أحمد وأخيه عبدالله، وهو ما حدث فعلا بعد ثلاث سنوات، وانتهى الأمير عبدالله قتيلا على يد أخيه سنة **1955**. وهذه الحادثة دلالة على نباهة الشاب المراهق وعلى الاقتناع بقدرته على استيعاب الرسالة السياسية الخطيرة وكتمانها وإلا لما غامر الأمير بطلبه والتحدث إليه. وهي علامة نضج سياسي مبكر.

وقد أقام مُحَمَّد نعمان في حجة ليبقى بجانب والده السجين الذي نجح في التملص من سيف الجلاد أولا ثم في ترويض الطاغية ليُفرَج عنه ويعيش فيما يشبه الإقامة الجبرية محددا إقامته في حجة للاستفادة منه في مجال التعليم.

---

[113] محمد أحمد نعمان، الأعمال الكاملة، ص. 194 . 195.

وظهرت براعة مُحَمَّد نعمان منذ تلك الفترة المبكرة، إذ أصبح طالبا في المدرسة ومساعدا لوالده في عملية التدريس ناقلا تجربته التعليمية في مستعمرة عدن إلى حجة وناشرا للأفكار المستنيرة. ومن هذه المدرسة نجح نعمان الأب في مساعدة طلبة للدراسة في الخارج مثل مُحَمَّد علي الشهاري وعلي حميد شرف ومُحَمَّد عبدالملك، ابن نائب الإمام في حجة، معتبرا تعلُّمهم وتفتُّحهم واستنارتهم نافذة لتسرُّب التعليم والاستنارة والأفكار الداعية للتغيير إلى منطقة كانت في تلك الأيام شديدة العزلة ومنفى للأحرار.

ويعد مُحَمَّد نعمان السياسي الوحيد في حركة الأحرار الذي اهتم بصياغة تصوراته وآرائه السياسية في نصوص مكتوبة عبر بها عما يجيش في صدره من آراء ورؤى. وزاد على ذلك أن كتب آراءه بصراحة تامة على غير عادة السياسيين الذين لا يقولون كل شيء بالتفصيل ويحتفظون لأنفسهم بهوامش للمناورة وبخطوط للتراجع أو المراوغة. وهو السياسي اليمني الوحيد الذي ترك تراثا مكتوبا إذا استثنينا أستاذه في السياسة مُحَمَّد محمود الزبيري الذي كان شاعرا سياسيا، أي أنه مارس السياسة بأحاسيس الشاعر المرهف وانفعالاته. فقد كان مُحَمَّد نعمان السياسي المثقف الذي ترك عددا من المؤلفات السياسية، فيها الكثير من الأفكار السياسية التي تحاول تجديد التفكير السياسي لحركة الأحرار المعارِضة.

لم يكن مجرد ناشط سياسي ينفذ ما يصدر عن قيادة الأحرار من قرارات ومن سياسات وإرشادات، بل كان دائما يحرص على أن يجتهد ويفكر ويبتكر ويقترح ويضيف بصمته الخاصة إلى المسيرة السياسية للمعارضة. وكان لا يتردد عن الجهر بآرائه حتى لو لاقت اعتراض العناصر التقليدية في المعارضة، لأن ذهنه كان متجددا، وكان كثير الإقبال على القراءة والاطلاع وتعميق ثقافته في حين كان معارضوه من التقليديين الذين لا يستطيعون مجاراته في تجدده واجتهاداته. كانوا كسولين وعاجزين في حين كان كثير النشاط والحركة. ولذلك وصفه بعض من عرفوه وأعجبوا بنشاطه، مازحين، بأنه "طاقة لا تطاق"، ووصفه آخرون بأنه الدَّوامة أو العاصفة.

ومن علامات نبوغ مُحَمَّد نعمان المبكر في يمن غارق في الظلام والتخلف أنه فكر بوضع أسئلة ووزعها على أحد عشر شخصا من الأحرار الدستوريين المسجونين في حجة طالبا منهم تقديم إجابات مكتوبة نشرها سنة **1963**، أي بعد قيام الجمهورية، في كتاب بعنوان "من وراء الأسوار". ويمكن القول من استعراض الأسماء أن الشاب المراهق قد اختار أسماءً قدَّر أنها

من الوعي والإخلاص للقضية ومن الثقة ما يجعله يغامر بهذا العمل السري معها، وأنه توسم أن يكون لها دور في مستقبل البلاد. وبالفعل كان من بينها من أصبح في العهد الجمهوري رئيسا للجمهورية مثل عبدالله السلال وعبدالرحمن الإرياني، ومن كان رئيسا للوزراء مثل والده أحمد مُحَمَّد نعمان، ومن أصبح نائبا لرئيس الوزراء مثل عبدالسلام صبرة ومُحَمَّد نعمان نفسه، ومن أصبح وزيرا أو سفيرا مثل أحمد المروني ومُحَمَّد السياغي ومُحَمَّد الفسيِّل وأحمد المعلمي.

ومجرد التفكير باقتراح مناقشة مستقبل اليمن ووضع مقترحات تشبه برنامجا للتغيير، في فترة كانت فيها هذه الشخصيات في ظلمة السجن خاضعة لكل احتمالات تغيُّر مزاج الطاغية، أمر غير عادي. فبدلا من البحث عن وسائل تخرجهم من السجن ليعودوا إلى الحياة العادية، تجاوزوا السجان وأسوار السجن، وتصرفوا كأنهم مسئولين عن إخراج البلاد من سجنها وعما ينبغي فعله لتغيير واقعها وبناء مستقبلها. كما أن قبول هؤلاء السجناء لمبادرة شاب ما يزال مراهقا والثقة به للكشف عما يفكرون به من هموم سياسية لهو علامة على أنهم كانوا على ثقة به وبقدرته على كتمان السر وبإخلاصه للقضية التي دخلوا السجن بسببها.

وقد تركزت الأسئلة حول "كيفية بناء الأمة من جديد بعد أن باءت بالفشل وأخفقت محاولتها الأولى"[114]. وقد وضع الأسئلة ورتب الحصول على الأجوبة بطريقة سرية فأعطى لنفسه رقما سريا هو (34) وأعطى أرقاما للمشاركين وللموضوعات لضمان عدم كشف هوية السائل وحماية من يجيب، وجمع المادة خارج السجن وحرص على عدم تسربها مما يجلب الضرر للمساهمين في المناقشة، واحتفظ بها في ظروف صعبة تواجه شابا في مقتبل العمر حتى تمكن من نشرها في بيروت سنة 1963 بعد أن قامت الجمهورية وأصبح أحد المشاركين في هذه المناقشة السرية، عبدالله السلال، أول رئيس للجمهورية.

ومع أن الكتاب قد نشر الإجابات دون أن ينشر النص الحرفي للأسئلة كما طرحت في حينها، يمكن تلخيص تلك الأسئلة من الإجابات المنشورة في نقاط محددة هي:

– تطلب الأسئلة رسم الخطوط الرئيسية لبناء مستقر "ترتكز عليه حكومة صالحة للحياة، تقوم على أساسه أمة تستطيع أن تشارك العالم في بناء الحضارة... ومعنى هذا وضع دستور منظم".

[114] نفسه، ص. 201.

– "ما ذا نريد؟ كيف وبمن نسوس الشعب" وكيف نبني حياته، ومن هم رجال الحل والعقد؟ وما هو نوع الحكم المطلوب؟

– هل كان موقف الحكام طبيعيا مع الأحرار وهل كان موقف الأحرار من الحكام طبيعيا؟

– السؤال عن قيادة حركة الأحرار، من القائد أو القيادة المؤهلة لقيادة حركة التغيير؟

– كيف نعيد تنظيم المعارضة من جديد ونبني مستقبل الشعب، وبأي الطرق والوسائل؟ بمعنى آخر، ما هو البرنامج المطلوب؟

– كيف يمكن لليمنيين أن يعتمدوا على أنفسهم ولا يعيشوا "على فضل الآخرين"[115]؟

لقد كان مُحَمَّد نعمان وهو في ذلك السن المبكر يقض مضاجع الأحرار المسجونين ويلاحقهم ويصدهم عن اليأس والقنوط والإحباط في أجواء الكارثة التي حلت بهم وبشعبهم، ويدفعهم إلى عدم انشغال كل منهم بتخفيف القيود عن قدميه وبتوفير الحد الأدنى من وسائل البقاء على قيد الحياة، ويكرر السؤال الصعب في تلك الظروف: "ماذا نريد؟". لأن مجرد محاولة التفكير بهذا السؤال ترياق ضد الانهيار وضد اليأس والقنوط. يريد منهم أن يفكروا في مقام التفكير فيه بما عدا مقاومة الانهيار والموت ضرب من المغامرة التي تحتاج لإرادة قوية وجسد قادر على تحمل مشقات السجن. يريد منهم أن يفكروا وأن يستخدموا عقولهم التي أراد الجلاد سحقها، فيكتسبوا قيمة تتجاوز أسوار السجن إلى الطموح النبيل لبناء عالم أفضل لليمنيين. ولا توجد طريقة لتحريرهم معنويا من الأغلال الواقعية التي تكبلهم ومن السجن الذي يحاصرهم سوى التفكير بأنهم طليعة شعب يسعى لتغيير واقعه وبناء حياة أفضل لأبنائه. ولا يوجد في السجن ما يمكن عمله لتحمل هذه المسئولية النبيلة سوى التفكير بوضع خطة عمليه لبلوغ هذا الهدف النبيل، أو برنامج سياسي يسعى للتغيير. فمجرد التفكير بهذا البرنامج يعطي لوجود الأحرار المسجونين معنى، ويجعلهم يشعرون أنهم أصحاب رسالة لا يتخلون عنها حتى وهم يعانون أشد المعاناة وغير قادرين على تحرير أنفسهم من السجن. ومجرد تواصل مُحَمَّد نعمان معهم والطلب منهم أن يفكروا بمستقبل البلاد يوفر لهم نافذة تجعلهم يخرجون معنويا من السجن ليفكروا بواقع الشعب المظلوم ويقترحون الحلول التي تحرره

[115] نفسه، ص. 240.

من الفقر والجهل والمرض. وهكذا يكون التفكير بالقضية التي سجنوا من أجلها نوعا من التحرير المعنوي لهم من عذابات السجن.

لا يهم هذه السطور ما ذا اقترح كل منهم من إجابات. بل المهم وما يكتسب مغزى تاريخيا هو أن عجلة التفكير بالقضية العامة التي يضحي المساجين المشاركون من أجلها قد دارت، وأن النقاش قد عاد فيما بينهم، مما يجعلهم يشعرون بأنهم موجودون وأنهم جزء من قضية عظيمة تستحق أن يضحوا من أجلها، ويحررهم من شعور كل منهم بالوحدة داخل ذاته، والعزلة عن رفاقه في السجن، ويعيدهم للتفكير بالقضية العامة.

تعطينا الإجابات التي جمعها مُحَمَّد نعمان صورة واقعية عن التفكير السياسي للأحرار في تلك الفترة الصعبة، تستمد أهميتها من الظرف الذي كتبت فيه داخل سجن حجة، ونوعية الشخصيات المشاركة، والحالة النفسية التي كانوا فيها، وحقيقة ما يفكرون به وهم في غياهب السجن مصدومين ومنهكين من هول الكارثة التي حلت بهم وبقضيتهم وبشعبهم، تؤرقهم ذكرى رفاقهم الذين أعدموا أو الذين تشردوا وتمزقوا. والأهم أنها تعكس إصرار الأحرار على التماسك والتفكير بالغد وتكرار المحاولة بعد الفشل الذريع. يقول نعمان الأب في إجاباته: "ولا شك أن الفشل هو سلم النجاح إذا واصل المرء كفاحه ونضاله ولم يستسلم لليأس"[116] مع أن اللحظة كئيبة ومحبطة ولا تبعث على التفاؤل.

وكمقدمة للشروع في الإجابة على الأسئلة التي طرحها يشرح لماذا ينبغي أن يكرروا محاولة التغيير فيقول إن الأحرار كانوا قد استعرضوا حال البلاد ودرسوها فوجدوها منكوبة بالجهل والفقر والمرض، وحاولوا أن يلفتوا نظر القائم على حكمها إلى ضرورة إنقاذها مما تعانيه بأسلوب التلميح وعدم الاصطدام بالحاكمين، فلم يجدوا استجابة فتلفتوا من حولهم في الداخل يتحسسون ويتلمسون لعلهم يجدون من يشاركهم الشعور بوجوب العمل لتخفيف المحنة، ووجدوا الكثيرين يتألمون سرا وجهرا إلا أنهم لا يعملون شيئا لمواجهة الظلم، والبعض يكتفي بالأمنيات ولا يفكر بالعمل والتضحية[117]. والبعض رأى أن الحل تحقيق الحكم الدستوري وإن كان الحكم الجمهوري الذي يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه هو أفضل نظام

---

[116] نفسه، ص. 210.

[117] نفسه.

للحكم"[118] لكن هذا البعض يحذر من أن الشعب لن يقبل هذا الحكم ولذلك يقترح التدرج والاكتفاء بالحكم الدستوري المبني على الشورى"[119].

تكشف دراسة مقارَنة بين آراء كل من الشخصيات المشاركة في تلك المناقشة في الماضي والحاضر إلى أي حد تطورت ونمت تلك الآراء بمرور الزمن أو تراجعت، ولكن هذا ليس موضوعنا هنا. ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى دور مُحَمَّد نعمان الثقافي في تطوير لغة السياسة وتغييرها، وفي تجديد تفكير الأحرار السياسي. إنه يضع الأسئلة ويطرح تحدي كل شخص لنفسه ليعرف لما ذا دخل السجن وما ذا ينشد من تغيير لبلده. إنه يشحذ الهمم، ويحض على التفكير، ويدعو لتحديد ملامح المعارضة التي دخلوا السجن بسببها. بمعنى آخر إنه يطرح عليهم موضوع التخطيط والبرمجة لنضالهم ولمسيرة حركة الأحرار، حتى لا يجد السجين نفسه نزيل السجن لا يعرف لماذا وماذا يريد. كما ينبه إلى ضرورة أن يتبادل الأحرار الآراء فيما بينهم ويتناقشوا لإيجاد رؤية مشتركة تجعلهم على بينة من أهداف نضالهم وغايات كفاحهم. وهو موضوع في غاية الأهمية، يدل على أن نعمان الابن كان من الذكاء بحيث يحدد مكمن النقص في حركة الأحرار ويدعو إلى تجاوزه أو على الأقل البدء بالعمل للوصول إلى تجاوز هذا النقص.

لكن أهمية هذا الكتاب الذي يجمع الإجابات أنه يشير إلى اهتمام مُحَمَّد نعمان المبكر بالأدب السياسي وبالكتابة وبأن يكون لا سياسيا فحسب، بل سياسيا مثقفا يضع آراءه بصراحة ودون غموض على الورق، ويتجادل حولها مع الآخرين، وينشرها كلما أتيحت له الظروف. وهذه بالضرورة ليست طريقة السياسي الذي يميل إلى الغموض ولا يكشف عن أوراقه مسبقا، بل يترك لنفسه مساحات كافية من الغموض وعدم التحديد ليتخذ المواقف الجديدة وفقا للظروف والمتغيرات وتغير المصالح التي يدافع عنها. أما هو فيرى أن "الغايات المبهمة تحشر الساعين حشرا، فيسير كلٌ بوحي من أغراضه، وربما وضع العراقيل والأشواك، بل الخنادق في طريق الآخرين، إما عن قصد أو عن غير قصد... ولهذا فإني أنادي وأطلب بإلحاح الإبانة عن كل غرض وأساليبه (الأساليب الموصلة إليه) حتى نسير ونحن مطمئنون...

---

[118] نفسه، ص. 221.

[119] نفسه.

حتى نعرف أنفسنا ونتفهمها فنسير ونحن واثقون من أنفسنا لا نخشى أن يطعننا أحد من الخلف"[120].

ويضيف في كتاب بعنوان "أزمة المثقف اليمني" أن المناقشات التي احتواها كتاب "من وراء الأسوار" لم تتوصل إلى إجابات مقنعة يرضى عنها للسؤال الذي طرحه على المسجونين في حجة، وظل السؤال مطروحا والإجابات مفتوحة، وقال إنه ظل يطرح هذا السؤال دائما على من يلتقي بهم من الأحرار وفي كل النشاطات، في الاتحاد اليمني وفي الجبهة الوطنية المتحدة وفي الصحافة وفي كل المنتديات، وإنه كان مهموما بصياغة البديل للنظام الإمامي المستبد.

وبوحي من تجربة مُحَمَّد نعمان في طرح الأسئلة على المثقفين المستنيرين في السجن وجمعها ونشرها، قام أحمد المعلمي الذي كان أحد من أجاب عن أسئلة مُحَمَّد نعمان، بطرح أسئلة على مجموعة من المسجونين، بعضهم ممن أجاب على أسئلة نعمان مثل أحمد المروني ومُحَمَّد الفُسيِّل ومُحَمَّد أحمد صبرة بالإضافة إلى المعلمي نفسه، مضيفا أحمد مُحَمَّد الشامي الذي لم يستجوبه نعمان، ربما لأنه لم يكن على ثقة بأنه سيكتم السر ويحرص على أمن الأحرار. وما يجعل هذا التوقع في محله أن أحمد الشامي خرج من السجن وقد تخلى عن حركة الأحرار وظل معاديا لها قبل الجمهورية وبعدها.

لكن كتاب المعلمي لا يشترك مع كتاب نعمان إلا في طرح الأسئلة على المساجين وجمعها لطباعتها فيما بعد. أما الأسئلة نفسها فقد ابتعدت عن السياسة وركزت على معرفة تعليمهم ومصادر تكوُّنهم الثقافي وتطور فهمهم للأدب وتجربتهم الشعرية. وهو كتاب ليس فيه مخاطرة ولم يحتج للتخفي وراء رموز وأرقام لحجب أسماء المشاركين وتجنيبهم أي أضرار أو مضاعفات تؤدي إلى تغليظ عقابهم وزيادة معاناتهم. وقد نشرت هذه السير الثقافية الموجزة في كتاب بعنوان "من سجن حجة – ثوار وثورة **1948**" لكن نشرها تأخر حتى بادرت "مؤسسة العفيف الثقافية" بنشرها سنة **2004**.

ويوضح مُحَمَّد نعمان، السياسي الليبرالي، في كتابه "أزمة المثقف اليمني" الصادر عام **1964** أنه لم يجد الإجابة المحددة والشافية على سؤال ما هو البديل الصالح للنظام السابق

---

[120] نفسه، ص. 250 . 251.

حتى بعد قيام الجمهورية، وأن نشره لكتاب "من وراء الأسوار" وكتابه الجديد "أزمة المثقف اليمني" محاولة جديدة للإجابة الضرورية عن هذا السؤال.

وقبل أن يشرع في عرض ما يراه "أزمة المثقف اليمني" يقدم تعريفه لهذا المثقف اليمني بقوله: "المثقف اليمني في عرفنا هو من أوتي حظا من الفهم والدراسة يمكنه من التعبير عن الرغبة التي تجيش في نفوس الجماهير لتطوير أوضاع اليمن والخروج بها من عزلتها عن العالم المتحضر، وإعادة صياغة العلاقات الاجتماعية والسياسية على أسس عادلة بين مختلف فئات الشعب"[121]. ويعبر عن عدم رضاه عن عدم التغيير الذي ينشده عند قيام الجمهورية بالقول إن "التناقض الحقيقي الذي ظهر بوضوح عند قيام الجمهورية هو التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه البلاد"، وكأنه يريد أن يقول لا يكفي أن نغير إماما برئيس جمهورية، بل ينبغي أن يشمل التغيير جميع مناحي الحياة بما يؤدي إلى القضاء على التخلف الذي هو التناقض الأساسي وما ينبغي مواجهته.

[121] محمد أحمد نعمان، الأعمال الكاملة، ص. 269.

الدعوة إلى الجمهورية

والحقيقة أن مُحَمَّد نعمان قد كان مجتهدا يحاول التجديد في فكر الأحرار حتى لو اختلف مع قيادة حركة الأحرار المعارِضة ممثلة في الدرجة الأولى بوالده وبالزبيري. وليس أدل على ذلك من أنه في سنة 1956 توصل إلى قناعة بأن طريقة حركة الأحرار المعارِضة، والتي تستند إلى ضرب إمام طاغية بإمام آخر على أن يلتزم بدستور يحدد المسئوليات والعلاقات بالمواطنين، لا يمكن أن تستمر ولا أن تنجح. ولذلك قال "نعم. إنني أريد الجمهورية في بلادي. أريد أن ينتهي التوريث للبشر في بلادي. أريد أن يشعر الحاكم حقيقة لا مجازا أنه يخدم مواطنيه وأنه موظف لديهم لمدة محدودة، يعمل أجيرا لديهم في إدارة شئونهم العامة، لا إلها متجبِّرا يهب الحياة لمن يشاء ويُطعم سيف (الوشاح)[122] من يريد. أريد تغيير نظم لا تغيير أشخاص"[123].

وقد كان هذا الرأي مصدر خلاف بين مُحَمَّد نعمان ومن معه من شباب المعارضة الممثلة بالاتحاد اليمني من جهة وبعض زعامات المعارضة، وبخاصة في مستعمرة عدن الذين اعترضوا على هذا الطرح واتهموا مُحَمَّد نعمان بالتطرف والجنون واستخدموه ذريعة للانشقاق عن الاتحاد اليمني. وقد كان رد مُحَمَّد نعمان قاسيا على من اتهموه بالتطرف.

حيث قال: "ألا فاسمعوا أيها المتعبون، ممن يرون أن معركة الحياة والموت بالنسبة للشعب العربي في اليمن محصورة في حياة الإمام الموجود واختيار الشخص الذي يخلفه، يا من عجزوا اليوم عن احتمال مشقات الكفاح والنضال، إنكم على أبواب القبور. وإذا كنتم ترتبون لأنفسكم مراسيم الجنازة فتذكروا أنكم أنتم وحدكم الذين تسيرون بخطوات واسعة نحو القبور فلا تحفروا قبرا لكل أبناء الشعب". وقد استدعى الأمر تدخل الزعامة التاريخية للأحرار ممثلة بالنعمان الأب والزبيري، وتم سحب مُحَمَّد نعمان من عدن إلى القاهرة للتخفيف

---

[122] الوشاح اسم السياف الذي كان ينفذ أوامر الطاغية بإعدام المعارضين، وأصبحت المعارضة تستخدمه كرمز للطغيان.

[123] نفسه، ص. 34 . 35.

من حماسته لإثارة مواضيع تؤدي إلى الانقسام وتثير الخلافات في أوساط المعارضة، واعتبرا أن موضوع الجمهورية من الموضوعات المتطرفة التي لا فائدة من نقاشها في ذلك الوقت.

لكن المطالبة بالجمهورية قد لاقت تأييد بعض شباب المعارضة. فهذا محسن العيني في جوابه على جنوبيين يقولون لا يمكن الوحدة مع مملكة الظلام يقول في كتابه "معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن" الصادر سنة 1957: "هيا بنا يا رجال نوحد النضال في سبيل جمهورية شعبية يتساوى في ظلها المواطنون، فلا تابع ولا متبوع ولا سيد ولا مسود. هيا بنا نؤسس الجمهورية، جمهورية اليمن"[124].

ويشير علي مُحَمَّد عبده إلى أنه عند وصول نسخ من كتاب محسن العيني "معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن" إلى عدن بعد صدور الكتاب سنة 1957 طلب منه مُحَمَّد نعمان إعداد عرض للكتاب بعنوان "أول دعوة للجمهورية في اليمن". وقد نُشِر هذا العرض في صحيفة "الفكر" التي كانت تصدر في عدن. ونشر صالح الدحان مقالا في الصفحة الأخيرة من صحيفة "اليقظة" يتحدث عن الدعوة للجمهورية[125].

وفي عام 1959 كرر مُحَمَّد نعمان هذه الدعوة للجمهورية في كتابه الصادر عن الاتحاد اليمني، القائد لحركة الأحرار المعارِضة، حين ربط بين الوحدة الشعبية والحكم الجمهوري قائلا: "أما النص على أن الوحدة شعبية فذلك اتقاءً للدعوى بأننا نطالب بتوحيد اليمن تحت التاج الإمامي أو التاج البريطاني، وهو تأكيد على أن الوحدة لا يصنعها غير الشعب نفسه باقتناعه الواعي وسعيه البصير... ونحن حين نجعل وحدة قطر اليمن مرتكز نضالنا السياسي فإنما نفعل ذلك انسجاما مع مواقفنا في معارضة الدستور (الخاص بمستعمرة عدن) وقانون الانتخابات وتعريف المواطنة ومشروع التعدين (نسبة إلى عدن)"[126].

وهذا النص الصادر باسم الاتحاد اليمني، المؤسسة التي تجمع حركة الأحرار المعارِضة، ومن عدن نفسها، مهم تاريخيا لأن الحركة كانت تتهم بأنها إما تهادن البريطانيين لتضمن لنفسها القدرة على المعارضة وتأمين طريق للتواصل مع الداخل وتسريب المطبوعات

---

[124] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 158.

[125] علي محمد عبده، لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين، ج2، ص. 145 . 147.

[126] نفسه، ص. 89.

والناشطين وغير ذلك، ويصل البعض إلى حد اتهام الحركة بأنها كانت على صلة ما بالبريطانيين في عدن[127].

وقد أثبت التاريخ أن مطالبة مُحَمَّد نعمان ومن معه من شباب المعارضة المستنيرين بالجمهورية كانت صادرة عن رؤية عميقة لتطورات الأحداث في اليمن وفي العالم العربي وفي العالم، وأنهم لم يكونوا يطلقون كلاما فارغا بلا معنى، فلم يمض سوى ست سنين، وهي فترة قصيرة جدا بمقياس تاريخ الشعوب، حتى قامت الجمهورية التي اعترض عليها الكثير من رجال المعارضة معتقدين بنظرة سكونية للتاريخ أن حدوثها مستحيل، وفي أحسن الأحوال أن الدعوة إليها سابقة لأوانها.

ومرة أخرى وجد مُحَمَّد نعمان نفسه في موقع المعارضة لجمهورية رأى أنها لا تتفق مع رؤيته الليبرالية للحكم. فقد كان القائد السياسي الجمهوري الذي لا يخفي انحيازه إلى الليبرالية الغربية وللاقتصاد الحر، وللتوافق بين جميع القوى صاحبة المصلحة في التغيير الجمهوري. وكان من الشجاعة والثقة بنفسه بحيث لا يخفي قناعاته الفكرية الليبرالية في السياسة والاقتصاد في وقت سادت فيه الأفكار القومية واليسارية ليس في اليمن فحسب، بل في العالم العربي، وبخاصة في فترة صعود قيادة جمال عبدالناصر لحركة التحرر العربي. وسادت في تلك الفترة فكرة الاقتصاد الموجَّه والتخطيط الشامل الذي رافق مفهوم رأسمالية الدولة التي تملك كل شيء أو تملك الكثير من مرتكزات الاقتصاد الوطني. وكان مؤمنا بالليبرالية الغربية في مجال الحكم والتمثيل الشعبي حتى لو اتخذ طابع تمثيل المناطق والفئات الاجتماعية بوجاهات نافذة. وورث عن أبيه رفض الحكم الفردي حتى لو استظل بشعارات ثورية. وكان ينفر من الحكم العسكري عموما ويميل إلى الانتخابات ووجود حكومة مسئولة أمام مجلس منتخب يمثل الشعب بصرف النظر عن التسمية (مجلس شورى، مجلس نواب، إلخ.).

ولذلك كان محل نقد شديد من جميع الاتجاهات السياسية، من المشايخ لأنه ضد الامتيازات الموروثة والمنتزعة بغلبة السلاح، ومن الضباط المستندين إلى القوة لأنه سياسي مدني يقف صراحة ضد غلبة القوة المسلحة على الحكم، ومن القوميين واليساريين لأنه يدعو

---

[127] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 51 . 52.، عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 339 وص. 368.

إلى سيادة الثقافة الليبرالية الغربية والاقتصاد الحر، ومن المستفيدين من الحرب لأنه بطبيعته غير مسلح ونصير لسلام متفق عليه بين جميع "الأطراف المعنية".

ولأنه داعية سلام ويرفض مواصلة الحرب، كان أحد ممثلي الجمهورية في لقاء بين القوى الجمهورية والمعارضة الملكية المسلحة، عقد سنة **1964** في إركويت في السودان، للبحث عن سبل لإيقاف الحرب. فقد كان رجلا مدنيا لا يميل إلى استخدام السلاح للتغلب على الآخرين، وكان دائما حريصا على تحقيق السلام الذي يرعى مصالح الجميع، بمن فيهم الجماعات المحاربة للجمهورية. وكان يطالب باتفاق سياسي يشركها في إدارة البلاد على أن لا تقصي القوى الأخرى غير المسلحة وغير المقاتلة. ولأنه كان مفكرا سياسيا إلى جانب كونه رجل سياسة، أطلق على هذه العملية مصطلح "الأطراف المعنية" فكان أول سياسي يمني يطرح هذا المصطلح ويدافع عنه ويطالب بتطبيقه، وقد لاقى في سبيل ذلك الكثير من النقد ومن الهجوم عليه واتهم بأنه طائفي لأنه يريد إشراك الجميع في إدارة الدولة وفي تحمل مسئولية تحديد مسار الجمهورية.

وقد لاقى كتابه "الأطراف المعنية في اليمن" الصادر في مطلع سنة **1966** نقد قاسيا ودحضا لما طرحه في هذا الكتاب المنطلق من مفاهيم سياسية ليبرالية لا يتفق الكثيرون معها فقال: "هناك من يعمد إلى إثارة المشاعر ضد المواقف التي يرفضها داعيا لإنكار شرعيتها، حاملا على صانعيها، ... وإثارة للآخرين ضدهم. وسواء قُدِّر لمن ينهج هذا السبيل النصر أو الهزيمة في محاولته تلك، فإنه لا يتراجع عنها ولا يرتضي لها بديلا. فإن انتصر فبطل، وإن انهزم فشهيد كريم.... وهناك من يستبد به إحساسه بالعجز وتشبثه في الوقت ذاته بالوقوف على أرض المسرح ولو كلوحة قانعا من الأمر بالسلامة... وبين الأسلوبين، أسلوب الرفض والقبول درجات"[128].

ويحول مصطلح "الأطراف المعنية" إلى نظرية سياسية يعرضها قائلا: "إن اعتماد أحد أسلوبي الرفض المطلق والقبول المطلق لا يؤدي عادة إلى الحلول السليمة، لأن رفض الواقع وفرض نظرية معينة وحلول وفق الأحلام ضرب من الخيال والهوس. والاقتناع بالواقع السيئ الأليم والتلاؤم معه دون التأثير فيه خضوع واستسلام لا يليق بالإنسان". ويرى أن المعالجة

[128] نفسه، ص. 325.

السليمة تراعي الواقع كأساس قائم مع تغييره نحو الأفضل وفقا لأحلام من يعملون لتطويره. فمثلا، يرى أنه إذا كان البعض قد استأثر بالسلطة في الماضي فإن على الجمهورية ألا ترد على الإقصاء بإقصاء مناقض، لأن الاستئثار بالسلطة سيّئ ويجب ألا يمارسه أحد. وكان في اليمن فئات اجتماعية واسعة تعرضت للغبن فهل نرفع الظلم عنها على حساب الآخرين؟ ويجيب على هذا السؤال بالرفض ويطالب بالاعتراف الواعي بحقوق جميع الفئات بلا استثناء على أساس المواطنة، وعلى أساس أن الأرض اليمنية وجدت قبل وجود كل فئة على حدة، وقبل كل المذاهب. يقول "من أجل استمرار وجودنا كبشر على أرضنا، كشعب وكوطن، يجب أن تُحوَّل الأطراف المعنية إلى طرف موحد الشعور والوجدان ينطلق بطاقاته للبناء والتعمير، ... بدل استنزافها في أعمال الفناء"[129]، أي في الحرب والتقاتُل.

لكن المعضلة الحقيقية التي واجهها ليس مُحَمَّد نعمان وحده، بل حركة الأحرار المعارِضة كلها، أن الجمهورية قد تحققت على أيدي ضباط صغار، على الرغم من تأثرهم بدعوة الأحرار للتغيير وبمنشوراتهم وبشعر الزبيري، كان لهم رؤيتهم الخاصة لنوع الحكم الذي يريدون تطبيقه، وللجمهورية التي غامروا وضحوا من أجل قيامها، وهي رؤية لا تتفق تماما مع ما طرحه الأحرار الذين فاجأتهم الجمهورية كما فاجأت الكثيرين في الداخل والخارج. كما أن الجماهير التي تدفقت على عاصمة الجمهورية من الداخل والخارج قد كان لها مطالبها وشعاراتها وحاجاتها التي تتجاوز أحيانا ما يفكر به الأحرار. وزاد الأمر تعقيدا لأن اندلاع الثورة المضادة وتوسعها وتدفق القوات المصرية المساندة لصمود الجمهورية قد خلقت وضعا جديدا لم يكن في حسبان الجميع.

وهكذا تغيرت المعطيات وفرض كثير من الوقائع الجديدة نفسه على واقع الجمهورية وعلى دور الجهات المختلفة. ووجد الأحرار القدامى، ومنهم مُحَمَّد نعمان، أنفسهم في موقع المعارضة الجمهورية مع تأييدهم للنظام الجمهوري الذي تمنوه وعملوا من أجله. ولذلك أصبحت جميع كتابات مُحَمَّد نعمان اللاحقة لقيام الجمهورية التي طالب بها ويؤيدها تنطلق من موقف المعارضة لما يجري داخل الجمهورية. وحتى حين انسحبت القوات المصرية من اليمن وانتهت الجمهورية الأولى وبدأ حصار صنعاء، اتخذ نعمان الأب والابن موقف المعارضة

[129] نفسه، ص. 328.

الداعية للمصالحة وتحقيق السلام، معتقدين أن ما حدث في 1948 من سقوط الحركة الدستورية سيتكرر في سنة 1967، فبقيا في الخارج في انتظار تكرار ما فعله الزبيري حين خرج بأعجوبة من صنعاء سنة 1948 ليعيدا إحياء حركة المعارضة من جديد. وقد كانت هذه التقديرات من علامات الابتعاد عن الواقع الجمهوري الجديد وعدم إدراك أن الجمهورية قد أوجدت قواها الجديدة القادرة على تثبيتها دون حاجة إلى قوى خارجية لتتدخل عسكريا لمساندتها.

وما أن جاءت المصالحة بين الجمهورية والجيران في سنة 1970 حتى عاد النعمان الأب والابن، وشاركا في قيادة الجمهورية الثانية ومحاولة تنفيذ رؤيتهما للجمهورية ولمهامها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وحين أُعلنت الجمهورية الثالثة في 13 يونيو 1974 وانتقلا للإقامة في بيروت تعرض مُحَمَّد نعمان للاغتيال في أواخر ذلك الشهر، فكان غيابه خاتمة مسيرة كفاحية لهما معا، لأن مُحَمَّد نعمان كان قد برز وأصبح بمثابة القبس الذي يضيء طريق والده المعارض العنيد.